

الدرس السادس والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثامن والأربعون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: “أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً، وإن كانت خصلةٌ منهمْ فيه كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدَّعها؛ إذا حدَّثَ كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر.” . خرَّجه البخاري ومسلم

الشرح ..

هذا الحديث الثامن والأربعون وهو من الأحاديث الثمانية التي زادها الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى على كتاب الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى .

وهذا الحديث فيه التحذير من النفاق ومن خصال المنافقين والتحذير من شعب النفاق ، وأن المسلم الذي أكرمه الله جل وعلا بالإيمان وهداه إلى هذا الدين أن يتجنب شعب النفاق وخصاله وأن يحذر منها أشد الحذر فإنه خطير على الشخص وعلى إيمانه ؛ ولهذا جاء هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم محذراً من النفاق ومن شعب النفاق .

والنفاق هو مخالفة الظاهر الباطن - الاختلاف بين الظاهر والباطن - فيكون ظاهر الإنسان شيءً وباطنه شيءٌ آخر .

وهو على نوعين : .

النوع الأول : نفاق اعتقادي ؛ ويقال له النفاق الأكبر ، وهو ناقل من الملة ؛ وهو أن يُظهر الإنسان الإيمان ويُبطن الكفر ؛ قال الله سبحانه وتعالى ﴿وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾، وقال تعالى ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ كاذبون لأن باطنهم يخالف ظاهرهم ، كاذبون في ادعائهم الإيمان أو في إظهارهم الإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ ، لأن باطنهم منطوٍ على خلاف ذلك . فهذا يُقال له النفاق الأكبر ، وهو مخرج من الملة ، وصاحبه يوم القيامة في النار ، بل هو في الدرجات السفلى منها .

النوع الثاني : النفاق العملي ؛ وهو أن يكون خلافاً بين الظاهر والباطن في أمور العمل ليس في أمور الاعتقاد ؛ مثل أن يُظهر الوفاء؛ وفي باطنه عدم الوفاء ، أو أن يظهر التزام الصدق وهو في باطنه ليس ملتزماً بالصدق ، أو يُظهر التزام الأمانة وهو في باطنه ليس ملتزماً بها ؛ فهذا يسمى النفاق العملي ولا يخرج من الملة ، ووجوده في الإنسان ليس مخرجاً من الملة لكنه كبيرة من كبائر الإثم وذنب عظيم وجرم وخيم ، ويكفي في ذلك جرماً أنه من شعب النفاق ومن خصال المنافقين .

والحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى في بيان هذا النفاق والتحذير منه ؛ فأورد حديث عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : “أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً، وإن كانت خصلةً منهنَّ فيه كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدَّعها؛ إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر”

قوله " أربعٌ من كن فيه كان منافقاً " : أي منافقاً النفاق العملي ، ويخشى على من اجتمعت فيه أن يُفضي اجتماعها فيه إلى الدخول في النفاق الاعتقادي لأنه اجتمعت فيه شعب النفاق العلمية، فيخشى على من كان كذلك أن يُفضي به الأمر إلى فساد باطنه وخراب قلبه بالتخلي عن الإيمان في الباطن مع الادعاء له بالظاهر ؛ وهذا أخطر ما يكون في الإنسان ، والمنافقون يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار فهذا معنى قوله “أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً ”

وقوله " إن كانت خصلةً منهن فيه كانت فيه خصلةٌ من النفاق " : فالأمور التي ستُذكر في الحديث هي من خصال النفاق ومن شعب النفاق ومن أوصاف أهل النفاق ، ويكفي تقبيحاً وتجريحاً لهذه الخصال كونها من خصال النفاق وشعبه .

وقوله عليه الصلاة والسلام في صدر هذا الحديث " أربع " : هذا أسلوب نافع في التعليم يفيد ضبط العلم وإتقانه ، بخلاف لو ذكرت سرداً دون أن يُنبه على العدد ؛ فذكر العدد قبل ذكر المعدود فيه ضبط للعلم وتثبيت له .

الخصلة الأولى : " إذا حدث كذب " والكذب ضد الصدق ، وكما أن الصدق يهدي صاحبه إلى كل خير ؛ فإن الكذب يفضي بصاحبه إلى كل شر ، قال عليه الصلاة والسلام "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار" . فالتزام المرء الصدق بوابةٌ للخير ونافذةٌ إليه ، ووقوع الإنسان في الكذب وتماديهِ فيه يُعدُّ بوابةً للشر ونافذةً للفجور .

" إذا حدّث كذب " يعني لا يصدق في حديثه ؛ يُظهر للناس أنه صادق في حديثه وهو بخلاف ذلك ؛ فهذا من خصال المنافقين وهي خصلةٌ ذميمة ومضرة بصاحبها غاية المضرة .

الخصلة الثانية : قال " وإذا وعد أخلف " : أي لا يفي بمواعيده ؛ بل يعد الناس وهو في باطنه ينوي أن لا يفي ، وهذا من خصال النفاق . بخلاف من لو أن الإنسان وعد وفي باطنه أن يفي لكن حصل له ظرف منعه أو حال حائل بينه وبين الوفاء ؛ فهذا معذور .

لكن خصلة النفاق أن يعد وهو في قرارة نفسه أو ما يبطنه في قلبه عدم الوفاء ؛ فاختلف الظاهر والباطن .

الخصلة الثالثة : قال " وإذا خاصم فجر " : إذا وقعت بينه وبين شخص خصومة يفجر بظلم صاحبه أو البغي عليه أو تحميله من الجناية والجرم ما لم يفعل وما لم يقع منه ويتعدّى على صاحبه ويجور ؛ فهذا الفجور في الخصومة وهو من خصال المنافقين ؛ فتجده يقسم الأيمان المغلظة أن الحق له ؛ وفي باطنه يعلم أن الحق لصاحبه ؛ فهذا نفاق - اختلاف الظاهر والباطن - في الظاهر يقسم الأيمان المغلظة أن الحق لي ، هذا المال لي ، ورثته كابراً عن كابر .. ؛ وفي الباطن

يعرف أنه ليس له فيه أي نصيب ولا حق له فيه ؛ فهذا نفاق عملي اختلف الظاهر عن الباطن وهذا من خصال المنافقين .

الخصلة الرابعة قال " إذا عاهد غدر " : أيضاً هنا اختلاف الظاهر والباطن ؛ يعطي في العهد صفحةً بيضاء والتزاماً ووفاء ومن يسمع كلامه يظن أنه من أهل الوفاء ؛ لكن الباطن شيء آخر ؛ يبيت الغدر والخيانة ؛ فهذا نفاق عملي ؛ ولهذا نلاحظ في هذه الخصال الأربع أنها كلها من النفاق لأن الظاهر اختلف عن الباطن .

وهذا كله يسمى نفاق عملي وهو من خصال المنافقين ومن شعب النفاق ، كما أن الطاعات مثل الصدق والبر والأمانة والوفاء من فروع الإيمان وشعبه ؛ فإن الكذب والخيانة والغدر والفجور ؛ كل ذلك من شعب النفاق ومن خصال المنافقين .

فهذا الحديث فيه التحذير الشديد من هذه الخصال الذميمة والأوصاف الشنيعة التي هي من خصال المنافقين ومن شعب النفاق .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : قوله : “ أَرَبْعُ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا ، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَاهَا “ ، المعنى أَنَّ مَنْ وَجَدْتَ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالَ الْأَرْبَعَ فَهُوَ مُوصَوْفٌ بِالنِّفَاقِ الْعَمَلِيِّ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَ هَذِهِ الْخَصْلَةَ ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ بَيَانِهِ صلى الله عليه وسلم ؛ حَيْثُ يَذْكُرُ الْعِدَدَ أَوَّلًا : ، ثُمَّ يَأْتِي بِتَفْصِيلِ الْمَعْدُودِ ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِفْزِ السَّامِعِ إِلَى الْإِسْتِعْدَادِ وَالتَّهَيُّؤِ لَوْعِي مَا سَيُلْقَى عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ ، وَلِيَطَالِبَ نَفْسَهُ بِالْمَعْدُودِ ، فَإِنْ لَمْ يُطَابَقْ عِلْمُهُ أَنَّهُ فَاتَهُ شَيْءٌ] .

الشرح ..

فإذا قال : " أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كان فيه واحدة منهم كان فيه خصلة من النفاق " ثم بدأ يعدّ فعد ثلاثاً ؛ فتجده يطالب نفسه يقول : بقيت الرابعة ؛ فأفاد ذكر العدد ضبط العلم ، لكن لو لم تُذكر فإذا عدّ ربما لا يطالب نفسه بالرابعة لأنه لم يذكر ذلك .

[ثانياً: الخصلة الأولى الكذب في الحديث، وذلك أن يحدث غيره بحديث هو كاذب فيه، فيخبر بالشيء على غير حقيقته، وفي ذلك إساءةٌ صاحب الحديث إلى نفسه؛ لا تصافه بهذا الخلق الذميم، وإساءةٌ إلى مَنْ يحدثه بإيهامه أنه صادق في حديثه معه، وقد قال صلى الله عليه وسلم : “ عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصِّدْقَ يهدي إلى البر، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدق ويتحرى الصِّدْقَ حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإيَّاكم والكذب؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار، وما يزال الرَّجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً ” رواه مسلم.

الشرح..

من يقع في الكذب وقع في إساءتين : إساءة إلى نفسه بحيث جعلها متصفة بهذا الخلق الشنيع الذي هو من صفات المنافقين ، والإساءة الثانية إساءته إلى من كذب عليه حيث توهم وظن أنه صادق ثم يظهر أنه بخلاف ذلك ..والله سبحانه يقول (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)

الخصلة الثانية: إخلاف الوعد، وذلك بأن يعدّ عدّةً وفي نيّته ألاّ يفي بها، أمّا إذا وعد وهو عازمٌ على الوفاء بالوعد، فطراً له ما يمنعه من الوفاء فهو معذور، وقد روى أبو داود عن عبد الله بن عامر أنه قال: “ دعني أمّي يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا، فقالت: هاه ، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه؟ قالت: أعطيه تمراً، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة “ . انظر: الصحيح للألباني] .

الشرح..

الخصلة الثانية : إخلاف الوعد ، والمراد من إخلاف الوعد أن يعد ومن نيّته عدم الوفاء وفي باطنه ألا يفي ، أما من وعد وفي نيّته الوفاء لكن حصل له ظرف أو حائل أو مانع فلم يتمكن من الوفاء ؛ فهو معذور .

وهذا الجانب ينبغي أن يُحذر منه حتى في أمور ربما يستهين بها بعض الناس ، ويراها أموراً عادية جداً وليست بذات بال ، مع أن النبي ﷺ حذر من مثل ذلك أشد التحذير ؛ في التعامل مع الصغار الناشئة الذين هم على الفطرة ، والفطرة هي الصدق والوفاء والأمانة ؛ فحذر النبي ﷺ في التعامل مع الصغار أن يعدهم الكبير دون وفاء ؛ مثل أن يقول للصغير تعالى خذ - كأن في يده حلوى أو ثمرة - ثم يُقبل الصغير يجري يريد أن يأخذ الذي في يده فيفتح اليد وإذا بها ليس بها شيء ؛ فهذا كثير ما يُفعل من باب المداعبة ؛ لكنه في الحقيقة إفساد لفطرة الطفل في صدقه وإدخال الكذب عليه ؛ فينشأ متخلفاً بالكذب الذي هو ليس من الفطرة بسبب هذه الأعمال ؛ ولهذا حذر النبي ﷺ من ذلك لخطورة هذا الأمر ولما فيه من الجناية على الناشئة والصغار .

ومما يُذكر في هذا المقام أن أحد طلاب العلم قديماً رحل إلى عالم أو رجل مشهور برواية الحديث ليسمع منه بعض الأحاديث التي يرويها بإسناده إلى رسول الله ﷺ

فوجده ممسكاً ثوبه وينادي شاةً له يوهمها أن في ثوبه طعام حتى يمسك بالشاة ؛ فاقترب منه ولم ير في ثوبه شيئاً فأنكر عمله وترك التلقي عنه وذهب .

فمثل هذه الأعمال قد يفعلها الإنسان بقصدٍ ليس في ذاته ذميماً ، لكن الفعل نفسه مذموم ويجر إلى ما وراءه من أضرار وآثام ووقوع في خصال النفاق وشعبه .

[الخصلة الثالثة : الفجور في الخصومة ، والمعنى أن يكون الإنسان عند الخصومة مع غيره يغضب فيتجاوز العدل إلى الظلم ، وقد قال الله عز وجل : { وَلَا يَجْرِ مَنَّكُمْ سَنَاءُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا } ، وقال : { وَلَا يَجْرِ مَنَّكُمْ سَنَاءُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا } ، قال الحافظ في الفتح “ والفجور الميل عن الحق والاحتيال في رده ” ، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : “ فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة - سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا - على أن ينتصر للباطل ، ويخيّل للسامع أنه حق ، ويوهن الحق ويخرجه في صورة الباطل ، كان ذلك من أقبح المحرمات ، ومن أخبث خصال النفاق “] .

الشرح..

المراد بالخصومة أن يتعدى - عندما يقع بينه وبين شخص ما في أمرٍ فيغاضبه فيتعدى عليه؛ فيفجر في خصومته ؛ بتغطية الحق الذي لصاحبه أو بإيهام أن الحق له وأنه هو صاحب الحق ، ويكون في ذلك ليس صادقاً ؛ فهذا فجور في الخصومة ، وبعض الناس قد يكون عنده لسان يستطيع بلسانه ومهارة حديثه أن يوهم أن الحق له .. بحديثه من جهة و حركاته من جهة أخرى ؛ فهو يتصنع أنه مظلوم ، وإذا جلس عند الحاكم جلس بصورة ربما من يراه لا يشك أنه مظلوم من كلام وبكاء .. فهذا فجور ، هذا التصرف القولي والفعلية أراد أن يتوصل به إلى تغطية حق غيره أو اعتداء على حق غيره فهذا يعد فجورا في الخصومة وهو من صفات أهل النفاق

[الخصلة الرابعة: الغدر في العهد، قال الله عزَّ وجلَّ: { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } ، وقال: { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا } ، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : “ والغدرُ حرامٌ في كلِّ عهد بين المسلم وغيره، ولو كان المعاهد كافرًا” ولهذا في حديث عبد الله بن عمر عن النَّبِيِّ ﷺ: " مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مَعَاهِدًا بِغَيْرِ حَقِّهَا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا " خرَّجه البخاري،

وقد أمر الله تعالى في كتابه بالوفاء بعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقضوا منها شيئاً، وأمَّا عهود المسلمين فيما بينهم فالوفاء بها أشد، ونقضها أعظمُ إثماً، ومن أعظمها نقض عهد الإمام على مَنْ بايعه ورضي به، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ قال: " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ... " فذكر منهم: " ورجلٌ بايع إماماً لا يُبايعه إلَّا لدنيا، فإن أعطاه ما يريد وقَّيَّ له، وإلَّا لم يَفِّ له " ، ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها ويحرم الغدرُ فيها جميعُ عقود المسلمين فيما بينهم إذا تراضوا عليها من المبيعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها، وكذلك ما يجب الوفاء به لله عزَّ وجلَّ ممَّا يعاهد العبدُ ربَّه عليه من نذر التبرر ونحوه “ [.

الشرح..

هذه الخصلة الرابعة من خصال وصفات أهل النفاق وهي الغدر بالعهد .

والوفاء بالعهد من صفات أهل الإيمان وهو من شعب الإيمان ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود ، ومن لم يف بالعهد وكان في العهد غادراً فهو على شعبة من شعب النفاق ولو كان العهد الذي التزمه كان مع مشرك وكافر ؛ فالتزام العهود والوفاء بها دينٌ شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده وأمرهم به ودعاهم إلى الوفاء به ولهذا جاء الوعيد الشديد في حق من قتل معاهداً ، والمعاهد هو الذي بينه وبين المسلمين عهد ودُمه حُقِنَ وحُرِّمَ بالعهد الذي بينه وبين المسلمين ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام "من قتل معاهداً بغير حق لم يرح رائحة الجنة وإن ریحها يوجد من أربعين عاماً " ؛ وهذا دليل على أن هذا العمل جُرْمٌ يُعَدُّ من كبائر الإثم لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الوعيد إلا في الكبائر التي تتنافى مع الإيمان الواجب .

[ثالثاً : مِمَّا يُسْتَفَاد من الحديث :

- أولاً : أنَّ من حسن التعليم ذكر المعلِّم العدد قبل تفسير المعداد؛ ليكون أوقع في ذهن المتعلِّم .
- ثانياً : بيان خطورة اجتماع خصال النفاق في الشخص .
- ثالثاً : التحذير من الكذب في الحديث، وأنَّه من خصال النفاق .
- رابعاً : التحذير من إخلاف الوعد، وأنَّه من خصال النفاق .
- خامساً : التحذير من الفجور في الخصومة، وأنَّه من خصال النفاق .
- سادساً : التحذير من الغدر في العهود، وأنَّه من خصال النفاق .

* * *

الحديث التاسع والأربعون

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لو أنكم توكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً " .

رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح .

الشرح..

هذا الحديث التاسع والأربعون وهو حديث عظيم في باب التوكل على الله سبحانه وتعالى ؛ بل إن هذا الحديث يُعد أصلاً جامعاً في باب التوكل .

والتوكل كما قال أهل العلم جماع الإيمان لأن المسلم يحتاج إلى التوكل في كل أموره الدينية والدينية ؛ ولهذا فإن التوكل مصاحبٌ للمؤمن الصادق في أموره الدينية كلها ؛ التوكل يصاحب المؤمن في صلاته وفي صيامه وفي حجه وفي بره وفي صلته وفي جميع أعماله الصالحات وطاعاته الزاكيات .

كذلك يصاحب المسلم في أموره الدنيوية ومصالحه وأعماله ولا يستغني عن التوكل على الله تبارك وتعالى طرفه عين لأنه لا غنى له عن الله تبارك وتعالى ، وقد كان من هدي نبينا صلى الله عليه وسلم أنه إذا خرج من البيت قال : " بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله " وذكر عليه الصلاة والسلام أن من قالها يقال له هُديت وكُفيت ووُقيت ، ويقول الشيطان لآخر : كيف لك السبيل برجل هُدي وكُفي ووُقي ؟ وبسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله : كلها كلمات استعانة وتوكل ؛ ولهذا يُشرع للمسلم في كل مرة يخرج من بيته أن يخرج متوكلاً على الله قائلاً بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله في أي مصلحة دينية أو دنيوية ؛ لأن التوكل يحتاج إليه المسلم في كل شؤونه الدينية والدنيوية .

والتوكل حقيقته اعتماد القلب على الله مع بذل الأسباب ؛ ولهذا بذل الأسباب من تمام التوكل ، والتخلي عن الأسباب وتعطيها يتنافى مع تحقيق التوكل .

والناس في هذا الباب طرفان ووسط :

طرف فعل الأسباب معتمداً عليها وعطّل التوكل .

وطرف اعتمد في قلبه على الله وعطّل الأسباب فلم يفعل منها شيئاً .

والوسط هو من جمع بين الأمرين ؛ اعتمد على الله سبحانه وتعالى وبذل السبب ؛ وهذا هو الذي شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده ؛ قال {فاعبدہ وتوکل علیہ} وقال عليه الصلاة والسلام " احرص على ما ينفعك واستعن بالله " ، وقال " اعقلها وتوكل " فأرشد على فعل السبب ، وكان صلى الله عليه وسلم هديته قائماً على بذل الأسباب في طلبه للغذاء والشراب والسكن واتقاء الشمس والحر والبرد وأيضاً في ملاقاتة الأعداء واتخاذ الأسباب ؛ فكان هديته عليه الصلاة والسلام قائماً على بذل الأسباب مع التوكل على الله سبحانه وتعالى .

فالتوكل قائم على أمرين : اعتماد القلب على الله ، وبذل الإنسان الأسباب النافعة المفيدة التي يُتوصل من خلالها إلى المصالح الدنيوية والدنيوية .

وقد أورد المصنف هذا الحديث في بيان التوكل وحقيقة التوكل ؛

قال فيه عليه الصلاة والسلام : " لو أنكم توكلون على الله حق توكله " : يعني لو قام في قلوبكم من الثقة بالله والاعتماد عليه جل وعلا وعدم الالتفات إلى سواه مع بذل الأسباب النافعة لرزقكم كما يرزق الطير ، والحديث فيه جمع بين الأمرين ؛ بين اعتماد القلب على الله وبذل السبب ، خلافاً لما يظنه بعض المعطلين للأسباب أن الحديث يشهد لهم في تعطيل الأسباب ، ويتوهمون أن المراد بقوله " توكلتم على الله حق توكله " أي بقيتم متوكلين معطلين للأسباب غير قائمين بها وهذا فهمٌ سيءٌ للحديث لا يدل عليه ؛ فقوله " لو توكلتم على الله حق توكله " يجمع الأمرين - اعتماد القلب مع بذل السبب - أما اعتماد القلب فهو ظاهر ،

وأما بذل السبب فمستفاد من المثال الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام قال :

" لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً " : يعني في الصباح الباكر تغدو من أوكارها ومن عشها خماصاً جائعة ليس في بطنها طعاماً .

" وتروح بطاناً " : تعود ورزقها الله سبحانه وتعالى طعاماً .

فحقيقة التوكل أن يعتمد على الله وأن يبذل السبب ، لا أن يبقى في مكانه ويقول أنا من المتوكلين ؛ ولهذا عمر بن الخطاب - راوي الحديث - رأى جماعة يقولون نحن المتوكلون ، خرجوا من ديارهم بدون زاد ويقولون نحن المتوكلون ؛ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " بل أنتم المتأكلون " ؛ يعني تستجدون الناس وتطلبون منهم أن يمدونكم بالطعام والشراب ، ثم قال : المتوكل الذي يضع بذره في الأرض ويقول توكلت على الله ويتوكل على الله .

أما أن يقول : إن كتب الله لي أن تكون حديقة تكون ؛ فأنا متوكل لن أبذل سبباً !! فهذا ليس من التوكل ، ومثله لو قال قائل : أنا لن أتزوج إلى أن أموت ولو كتب الله لي ذرية يكون ! وآخر يقول : أنا لن أذهب إلى العلماء ولن أقرأ الكتب وإن كتب الله لي أن أكون من العلماء سأكون ! فهذا كله تواكل وليس توكل .

فالتوكل يكون على أمرين :

• الأول ؛ الثقة بالله والاعتماد عليه (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت)

• الثاني ؛ بذل الأسباب وقد كان هذا هو هديه عليه الصلاة والسلام

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : هذا الحديث أصل في التوكل على الله عز وجل ، مع الأخذ بالأسباب المشروعة ، والأخذ بها لا يُنافي التوكل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيّد المتوكلين قد دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر ، وقد أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث في صحيح مسلم " احرص على ما ينفعك واستعن بالله " وحديث عمر هذا فيه الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، والأخذ بالأسباب فيما ذكر عن الطير ؛

لأنَّها تغدو خماساً أي خالية البطون لطلب الرزق، وتروح بطاناً أي مُتلتة البطون، ومع أخذ المرء بالأسباب لا يعتمد عليها، بل يعتمد على الله ولا يُهمَل الأخذ بالأسباب ثم يزعم أنَّه متوكِّل، والله قدر الأسباب والمسبَّبات، قال ابن رجب في جامع العلوم الحكم وهذا الحديث أصلٌ في التوكل ، وأنَّه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق، قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ... " إلى أن قال: " وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عزَّ وجلَّ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلِّها، وكلِّه الأمور كلِّها إليه، وتحقيق الإيمان بأنَّه لا يعطي ولا يَمْنَع ولا يضر ولا ينفع سواه " .

الشرح..

هذه حقيقة التوكل كما وضع ذلك ابن رجب رحمه الله " صدق اعتماد القلب على الله عزَّ وجلَّ في استجلاب المصالح ودفع المضار الدينية والدنيوية " وهو لا يتنافى مع فعل الأسباب بل فعل الأسباب من تمام التوكل ، وفي هدي سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم وإمام المتقين صلوات الله وسلامه عليه الأخذ بالأسباب ؛ فلما دخل مكة فاتحاً كان على رأسه المغفر ، وكان في بعض غزواته يُظاھر بين الترسين ، والمغفر والترس يُتقى به النبل والسهم ، المغفر يحمي الرأس ويقيه ، والترس يقي الصدر من النبل والسهم والسيوف ؛ فهذا من بذل الأسباب فكان من هديه عليه السلام بذل السبب في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه .

فإذاً بذل السبب لا يتنافى مع التوكل بل هو من تمام التوكل . والحديث كما عرفنا فيه الإشارة لذلك لأنه ضرب مثلاً قال : كما يرزق الطير ؛ والطير لا تبقى في عشاها تنتظر أن يأتيها القمح والطعام والشراب في العش ؛ بل تمشي وتقطع المسافات بحثاً عن الماء وبحثاً عن الغذاء وهذا بذل للسبب .

فحقيقة التوكل صدق الاعتماد على الله جل وعلا مع بذل الأسباب النافعة في جلب المفيد ودفع الضار .

[ثانياً : مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

أولاً : وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه في جلب كلِّ مطلوب، ودفع كلِّ مرهوب.

ثانياً : الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، وذلك لا يُنافي التوكل] .

* . *

الحديث الخمسون

عن عبد الله بن بسر قال: " أتى النَّبِيُّ ﷺ رجلاً، فقال: يا رسول الله! إنَّ شرائع الإسلام قد كثُرت علينا، فبابٌ نتمسَّكُ به جامع؟ قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عزَّ وجلَّ ".

خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَخَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ بِمَعْنَاهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

الشرح..

هذا الحديث الخمسون هو آخر حديث في هذا المجموع المبارك الذي اشتمل على ما جمعه الإمام النووي رحمه الله تعالى وما زاده عليه الإمام الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى وبلغ عدة هذا المجموع خمسين حديثاً، وهي أحاديث عظيمة منتقاة جمعت أهميات الدين وأصول الإيمان وشرائع الإسلام وقواعد الدين الكلية ؛ ولهذا العلماء قديماً وحديثاً ينصحون طلاب العلم بحفظ هذه الأربعين وحفظ الزيادة التي زادها الحافظ بن رجب رحمه الله ، وأن يضيف طالب العلم مع حفظه لهذه الأحاديث ضبط المعاني ومعرفة المدلولات ؛ فيصبح لديه بإذن الله تبارك وتعالى قاعدة جيدة لأهميات الدين وقواعد الشريعة وكلّيات الإسلام وأصوله وقواعده العظام ؛ هذا كله مُستفاد من هذه الأحاديث المنتقاة المجموعة ، وكلها داخلة في عداد جوامع الكلم المأثور عن رسول الله ﷺ .

وقد ختم بنُّ رجب هذا الحديث المجموع بهذا الحديث ؛

قال : " أتى النبيّ رجلٌ " : قوله هذا من الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم بتقديمه في الذكر ؛ فهو عليه الصلاة والسلام هو الذي أُتي ، والعادة أن يُقدّم الفاعل ، وفاعل الإتيان الرجل ؛ لكن قدّم النبي صلى الله عليه وسلم مراعاةً للأدب معه . وهذا يُلاحظ في ذكر الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام مثل قولهم : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم... فهم يُراعون الألفاظ التي يذكرون فيها النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال " إنّ شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فبابٌ نتمسك به جامع " : بعض الناس ربما يفهم الحديث فهماً خاطئاً؛ فالرجل يقول : " شرائع الإسلام كثرت علينا " فهل هو يريد بقوله هذا إلغاء بعض الشرائع والتخفيف منها ؟ أم أن مطلوبه من النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر له شيئاً يعينه على هذه الشرائع ويخففها عليه ؟

لا شك أن مقصوده الثاني لا الأول ؛ ليس مقصوده بقوله " إنّ شرائع الإسلام قد كثرت علينا " يطلب أن يخفف شيئاً منها أو أن يلغي شيئاً منها أو أن يذكر له شيئاً يستغني به عن هذه الشرائع ؛ هذا ليس هو المراد من مطلوبه .. إذاً ماذا طلب ؟

طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر له شيئاً جامعاً في هذا الباب يفيد في المحافظة على شرائع الإسلام .

ولهذا أهل العلم استنبطوا من هذا الحديث فائدة عظيمة جليلة القدر ألا وهي أن من فوائد الذكر أنه يعين العبد على القيام بشرائع الإسلام ويلينها ويسهلها عليه ؛ فالمحافظة على الأذكار تليّن الطاعة وتُسهلها للعبد وتجعل صدره منشرحاً مقبلاً على الطاعة ولا تكون الطاعة ثقيلة على الإنسان ، فالنبي عليه الصلاة والسلام أرشده إلى الذكر والعناية به وترطيب اللسان به .

نلاحظ في السؤال ما يوضح هذا الأمر قال " فباب نتمسك به جامع " : وهذا يفيد أن الأمر الذي ذكره له النبي صلى الله عليه وسلم أمرٌ مشتمل على جماع الخير ؛ فأرشده عليه الصلاة والسلام إلى كثرة الذكر وأن يكون اللسان رطباً بالذكر ؛ وهذا ييسر للعبد الطاعة والعبادة ، بل يعينه على جميع مصالحه الدينية والدنيوية ؛ ولهذا ابن القيم رحمه الله ذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية إذا صلى الفجر بقي في مصلاه إلى الضحى يذكر الله ؛ يقول : فسألته مرةً في ذلك فقال : هذه غدوتي ، لو لم أفعل ذلك خارت قواي .

فهذا يفيد أن الذكر يُعطي العبد نشاطاً للقيام بمصالحه الدينية والدنيوية ؛ وهذا مستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم لما سأله فاطمة لما سأله خادمًا قال : ألا أدلك على ما هو خير لك من خادم " تسبحين

الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدينه ثلاثا ثلاثين وتكبرينه ثلاثاً وثلاثين " ، أخذ أهل العلم من هذا الحديث أن هذا يعطي الجسم قوةً ونشاطاً للقيام بالمصالح الدينية والدنيوية ، وهذا الصحابي لما طلب من النبي ﷺ أمراً جامعاً يعينه على القيام بالشرائع التي كثرت عليه ؛ فيريد ما يجمع له الخير ويعينه على القيام به أرشده عليه الصلاة والسلام إلى الإكثار من ذكر الله .

قال " لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل " وهذا فيه أن الذكر يرطب اللسان بالخير والكلام الطيب النافع المفيد الذي ينعكس على حياة المسلم كلها خيراً ورفعةً وبركة .
والإمام الحافظ بن رجب رحمه الله في ختمه لهذا الكتاب المبارك بهذا الحديث ؛ يظهر لي والله أعلم أن ثمة لمحة يحسن الانتباه لها؛ وهي أن طالب العلم لما مر على هذا الكتاب وأحاديثه الجامعة التي جمعت الدين وأمهاته وشرائع الإسلام والقواعد الكلية يجد أن هذا الكتاب فتح له أبواب كثيرة من الخير والبر ؛ فإذا وصل إلى نهاية هذه العلوم المباركة الغزيرة الجامعة يريد ويطلب لنفسه الشيء الذي يضبط ذلك وييسر له المزيد من العلم والعمل ؛ لأن الكتاب فيه مفاتيح العلم والعمل ؛ فيطلب المزيد من ذلك ؛ فختتم بالذكر وبهذا الحديث الجامع حاثاً طالب العلم على الإكثار من ذكر الله ؛ فالذكر هو الذي ييسر للإنسان طلب العلم ، وهو الذي ييسر له القيام بالعبادة ، وهو الذي ييسر له عموم المصالح والمنافع الدينية والدنيوية .

قال الشيخ عبد المحسن البدر :

[أولاً: سؤال هذا الرجل رسول الله ﷺ مثال من الأمثلة الكثيرة في سؤال أصحاب رسول الله ﷺ عن أمور الدين، وكلُّ ذلك دالٌّ على فضلهم ونبلمهم وسبقهم إلى كلّ خير وحرصهم على كلّ خير، والمراد بالشرائع التي كثرت النوافل، وقد أراد هذا الصحابي معرفة طريق من طرق الخير يخصّها بمزيد اعتناء لتحصيل ثواب الله عزّ وجلّ، وأمّا الفرائض فإنّها مطلوبة كلّها، ويجب على المسلم التمسكُ بها جميعاً، وقد أجابه النبيّ ﷺ بالمداومة على ذكر الله، وألاًّ يزال لسانه رطباً من ذكره، والذكرُ يكون عامّاً وخاصّاً، والذكرُ العام يدخل فيه الصلوات وقراءة القرآن وتعلُّم العلم وتعليمه وحمد الله والثناء عليه وتنزيهه وتقديسه عن كلّ ما لا يليق به، والذكرُ الخاص حمد الله والثناء عليه وتسيحه وتهليله وتكبيره وتحميده، وهو الذي يُقرن بالدعاء، فيقال: الذكر والدعاء، أو الأدعية والأذكار، وهذا العمل سهلٌ على الإنسان، عظيم الأجر عند الله، وثبت في الصحيحين وهو آخر حديث في صحيح البخاري قوله ﷺ : " كلمتان حبيبتان إلى الرحمن،

خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان وبحمده، سبحان الله العظيم " .

ثانياً : ممّا يُستفاد من الحديث:

أولاً : حرص الصحابة رضي الله عنهم على الأسئلة عن أمور دينهم.

ثانياً : فضل ذكر الله عزّ وجلّ و المدوامة عليه.

آخر الشرح، والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*